

روح الإسلام في العبادة

للاستاذ عمر الدسوقي



من ذبلك
المخلوق المتجبر
الذي تمنوله جباه
الضواري في
أدغالها ، وتفرق
من طلته الوعول
في معاقلهاء ، وعمن
السماك في مساربه
هلمالكذنوه ، ونهايه
الطيور في أوكارها ،
والصلال في
أبحارها ؟ ! هو

الإنسان ادرج على الأرض فكان سيدها المطاع ، ولم تمجزه إلا تلك
القوى السابوية ، من ربح زقوف عاتية ، أو رعود قاسفة مدوية ،
أو زلازل تميدها لها الأرض تحت قدميه ، أو براكين تتور محنقة
غاضبة أمام عينيه . كيف يدرأ شرها ، أو يجوز رضاها ؟ سجد لها
وتضرع ، وترن بالقربي والابتهال . ولكنه خلق وفي نفسه
عنجبية وكبرياء ، فأخذ على مر القرون يتنكر لها ، ويشمر عن
ساعده لتسخيرها وصرعها ، وكلما ذاق لذة الظفر مرة ، قوى

يكون اسماً للأفعال المستحسنة كالإنسانية . والثاني أن يكون من
المرء قِيُجَمَل اسماً للمحاسن التي يختص بها الرجل دون المرأة
فيكون كالرجولية ؛ وذلك أخص من الإنسانية ، إذ الإنسانية يشترك
فيها الرجال والنساء ، والروء أخص بكثير مما يكون فضيلة للمرأة
يكون ذاية [رذيلة] للرجال كالبه والحفر والبخل والجبن ، ولهذا قيل
الخلائق الرجال [خلائق الرجال] أرذل أخلاق النساء ، فالسكيس
والشجاعة والجلود رذيلة لمن .
بشر فارسي

إيمانه بقدرته ، وجلال عقله ، وكفر بها ، ولج في كفرانه ؛ بيد
أنه أحسن من أعماق فؤاده نداء خفياً أن نعمة إله آخر ، أنت والدينا
والطبيعة صنع يده القادرة ما بالك كلما حز بك أمر ، أو تكأ كأت
عليك المصائب ، أو خطف الموت فلذة كبذك وأجباك ، تنادي
في ذلة وضراعة ذلك الإله الذي لا تراه ، أن رفقاً يارباه ، فليس
لي حول ولا طول أمام جبروتك وعظم ملكوتك . قرت
في جنانه تلك العقيدة فهبدأ بلباله ، وطفق يلهج بما يكنه فؤاده من
حب ومعرفة بالجميل ، وندم وتوسل ، لذلك الإله الدائم اليقظة ،
الذي ينشر رحمته على الدنيا جماء . وهل الصلاة والعبادة سوى
مظهر من مظاهر ذلك الشعور الذي يفيض به قلب الإنسان ؟

فكر في كنه ذلك الإله ، ثم فكر حتى أجهده الفكر ، وكبا
عقله في الميدان صريعاً ، وزين له الشيطان أن يصور ذلك الإله
ويرض له ، ويمبد الرض تقرباً إلى الله وزلفى ؛ ثم أتى عليه حين
من الدهر نسى مغزى هذه الرموز والأصنام ، فخالها آلهة قادرة ،
يتحكم كل منها في شأن من شئون العالم ؛ وتوهم أن لها ما للإنسان
من شهوة ورغبات ، وإحساس وشعور ؛ وما ذام الإنسان لا يقر
عيناً وبطيب نفساً إلا إذا عل من معين المادة حتى روى ، فكذلك
الآلهة لا بد لها من القرابين والضحايا . شاد العابد والمباكل
وأخذ يتعبد كما زخرف له الشيطان ؛ ولهذا كانت العبادة عند قدماء
الهند تتألف من الطهارة والقرابين ، وظلت هكذا ردهاً من الزمن
غير قصير ، حتى آب الإنسان لرشده وارتقت الفكرة الدينية عند
فلاسفة الهند الأقدمين ، ففهموا للطهارة والقربي مغزى غير
ما أدرك أسلافهم ؛ بيد أن البرهمية لم تجد قيد شمرة عن إيمانها
بالقربان ، ولا سيما بعد أن قويت عقيدة الدهاء بالسكمنة ، وما حبتهم
الآلهة من فضائل خفية هي حبس عليهم وعلى ذريتهم من بعدهم

اعتقد طعام الناس أن الآلهة لن تتقبل القران ، إلا إذا باركه
الكاهن ، وقدمه بيده ، وبطريقة معينة لا تغير فيها ولا تبديل ،
مرتلاً خلال ذلك أناشيد وأدعية ، يرددها لسانه ، ولا يحس بها
جنانه ، بينما يقف للتقرب مكتوف اليدين يسمع ويرى دون
أن يضرب بسهم ، أو يقوه بكلمة ، في هذه العبادة التي أقيمت
من أجله . لم تكن العبادة تقدر بسيرة التقرب الخلقية ، وفضائله
ومزايه ، أو رذائله وتناقضه ، ولكن بمخدق الكاهن وبراعته

في شريعتهم . ولكن الصلاة عادت آية في كثير من الأحيان ؛ لأن الشعب لم يحد مناصاً عن طلب الكاهن ليؤمهم ، إذ لم يكن بين أيديهم تشريع خاص من الله يرجعون إليه ؛ ونفقت سوق الكهنة وأخذوا يبيعون كلمات الله بثمن بخس دراهم معدودات . ألم يعنفهم القرآن على ذلك الحرم في سورة البقرة مخاطباً بني إسرائيل :

« ولا تشتروا آياتي ثمناً قليلاً ، وإياي فاتقون » ؟؟

ثم مثلت تعاليم المسيح تطوراً جديداً في شعور الإنسان الديني وقدرت الصلاة حق قدرها ، واقتفى الحواريون خطى إمامهم فمكفوا على عبادة الله وحده ؛ ولكن المسيحية ، جاءت كاليهودية ، دخلوا من قواعد معينة ، ونظم محدودة ، يترشد بها الدهماء في صلاتهم ، فتركوا على مر الزمن العوبة في يد التسييين الذين أخذوا على عاتقهم ، تنظيم العبادة ، وبيان أوقاتها ومراسيمها ؛ ومن ثم ألقت كتب الصلاة والأنظمة الدينية ، والمجالس الكنسية ؛ لتبين للناس ما يعتقدون وكيف يتعبدون ؛ ومن ثم برزت للوجود عبادة الرهبان الآلية ، وأنشيدهم وتريلاتهم التي لا روح فيها ؛ وأخذ الناس يهرعون إلى الكنائس يوماً من كل أسبوع ، ليأخذوا ما فاتهم من الغذاء الروحي خلال الأيام الستة الأخرى . كانت هذه حال الديانات في القرن السابع الميلادي ، حين سطع نور الرسالة المحمدية في أفق صحراء العرب ، يهدي الناس إلى دين جديد ، يشبع نهم نفوسهم ، ويسمو بأرواحهم إلى الدرجات العلى . دع جانباً ما كانت تهم فيه الأمة العربية ذاتها ، من ضلال ، وفساد في العقيدة ، وإسفاف في الفكرة الدينية ، وعجز عن إدراك عظمة الإله وقديسيته ، وطواقتها بأصنام من الحجر الصلد ، لا تحير جواباً إذا نوديت ، أو تنفع إذا دعيت ، أو تشع في الفؤاد نوراً أو تنبت في الروح بفضة إذا عبتت وقدمت . نفذ الإسلام إلى قرارة الروح الإنسانية ، ورأى تحرقها للافصاح عن حبا وشكرها لله ، ففرض صلاة ، تسمد بها النفوس ، وتنبئ الأخلاق ، وتسمو العقول ؛ وجعلها على أوقات ، حتى لا يسبح الفكر الإنساني في عالم اللذات ، وينسى غذاءه الروحي . وقد أوضح صاحب الرسالة عليه السلام كيفية أدائها قولاً وفعلاً ، لتلا يترك الناس فوضى في عباداتهم .

وغدا المجال فسيح المدى أمام كل فرد ، ليعبد الله بقلب يفيض حباً وضرعة وإخلاصاً .

في تأدية المراسيم الدينية غير متعلم اللسان ، أو جامع اليد ، وإلا بطل ثوابها وجبط عملها ؛ وما على التمسك إلا أن يعتقد بأن الآلهة سوف تسبح عليه أبراد الرحمة ضافية ، جذلاً بما قدمت يداه

أما الزرادشتيون ، والصابئون من الفرس ، فقد عاشوا في دنيا من الصلوات والدعاء ؛ فكان الزرادشتي يتعم بالدعاء ، إذا عطس ، أو قلم أظفاره ، أو قص شعره ، أو حاك ثيابه ، أو طهى طعامه ، أو أشعل مصباحه ، ليلاً ونهاراً ، لا يكمل ولا يعمل دانوا بالعبادة بادي ذي بدء لآلهتهم « أورمزد » ، ثم ما لبثوا أن قدسوا السماء وبروجها ، والأرض وجبالها ، والوحوش الكاسرة ، والأشجار الثابتة ، وكان لنبات القمر^(١) منزلة في نفوسهم لانساي وما كانت عبادتهم سوى تكرار صيغة من الدعاء ، فقدت ما بها من حرارة ، وذهب مالها من طلاوة وتأثير بكر الزمان ومر العشى . أجل ! إن مثل الخلفية كانت جلية عند بعض مفكرهم ، ولكن الشعب لم يدرك لها رسماً . أضف إلى ذلك أن الكهنة خصوا أنفسهم بالحياة الروحية ، وحرموها على سواهم من الناس ؛ كما شيدوا حصوناً من القداسة كانت لهم معقلاً يباعد بينهم وبين غيرهم ، ويحول بين الناس وبين التمتع الروحية السامية ؛ لأن الكهنة ابتدعوا نوعين من العبادة ، أولها حكر عليهم وعلى طائفتهم ، وثانيها مباح للناس أن يساهوا فيه^(٢)

أما اليهودية نجأت خلواً من الأوامر التي تمح على الصلاة ، اللهم إلا صيغة واحدة من الدعاء بلفظ بها رب الأسرة ، حين يدفع جمل الكاهن ، أو يتقرب بياكورة ماشيته وزرعه ، مثنياً فيها على الله أن مكنه من القيام بأعماله ، ومتوسلاً به أن يسبح بركاه على بني إسرائيل

ثم سمحت الفكرة الروحية حول الذات العلية ، عند عامة اليهود ، ووعاظهم ، واختفت عقيدة التجسيم من أفئدتهم ، وأدرك الناس أن العبادة شرعة يصل بها العبد إلى مولاه ؛ ومن ثم أصبح اليهود بالعرف والمادة أمة ذات صلاة ، على الرغم من فقدان النص الصريح

(١) يسمى بالسكربتية Soma ، وعند الزرادشتيين Homa

(٢) راجع the Gentile and the Jew لمؤلفه Döllinger ص ٣٩٨

الجزء الأول .

ليس المراد أننا سوى مجموعة من الصلوات والأدعية والتوسلات ، لعدد كبير من الآلهة ، يمثل « أورمزد » ، بينها الكتابة الأولى .

راجع كذلك ten Great Religions لمؤلفه Clarke ص ١٨٢ ، ٢٠٢

الأكبر تذكرة بما قام به سيدنا إبراهيم لا غير ، فضلاً عما فيه من إطعام البائس والفقير ؛ ولذلك يُهدى ثلثها ويُصدق بثلثها ، ويُؤكل ثلثها الباقي .

حمل الإسلام طهارة البدن شرطاً في صحة الصلاة ، وفي الوقت ذاته نص على أن مجرد الطهارة البدنية لا يفي أمام الله فتيلاً ، إذا لم تصحبها طهارة في الروح ، وإخلاص في القلب ، وخلوه من الكبر والرياء ، والحسد والبغضاء .

يستقبل المسلمون جميعاً مكة في صلاتهم ؛ حتى يظل مهد الإسلام الذي انبثق منه هذا النور الفياض ، والذي شاهد أشعته الأولى تبدد دياجير الجهل ، ملء سمع المسلمين وأبصارهم ؛ وحتى يتحلوا موطن ذيك الصراع العنيف بين الحق وصورته ، والباطل ودولته ، وكيف حطمت الأصنام وطهرت الأرض من أدران البني والعدوان ، والعشق والدعارة ؛ وحتى يتذكروا أن إخوانهم في مشارق الأرض ومغاربها يشاطرونهم شعورهم ، ويولون وجوههم صوب هذه البقعة المباركة كما يتوجهون ، وأن السلم عضو في جماعة عظيمة تملأ فجج الأرض ، يربطها دين واحد ، ويحفزها رجاء واحد ، وتؤمن بالله واحد .

تلك هي روح الإسلام في فرع واحد من فروع العبادة ، ولولا خشية الإطالة لينت ما في الصوم والزكاة والحج من فكرة سامية وروح عالية .

عمر السمرقني

إن الصلاة التي تؤدي ، والنفس تمرها الخشية والخشوع ، لجديرة أن تجعل من الإنسان ملكاً يقمر الناس حباً وحناناً وخيراً وإحساناً ، وفي ذلك يقول الله سبحانه : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر »

وهاك ما قاله أحد كتاب الإنجليز مرة : تتجلى عظمة الإسلام في أن معابده ليست مما تشيدها الأيدي ، وأن المسلم يستطيع تأدية صلاته في أي مكان شاء ، تحت القبة الزرقاء ، أو على ظهر البسيطة (١) أي بقعة يصلي فيها المسلم مخلصاً لله خفيفاً فهي له مسجد « جعلت لي الأرض كلها مسجداً ، وتربتها طهوراً » (٢)

لم يقدر المسيحيون ما في صلاتنا من قوة روحية ومعنوية ، ونبي الإسلام يقول : « جعلت قرة عيني في الصلاة » لأنه يناجي ربه ويجرد روحه أمام بارئه دون وساطة أو شفيع . وقد ثبت عن الثقة أنه كان يبكي ، وينتحب في صلاته ، ويتململ تملل السليم تضرعاً إلى الله ، وإجابة له .

لارهبانية في الإسلام ؛ لأنه دين سمح سهل ، يكفل خيري الدنيا والآخرة ، ولم يدع أي شيء يحول بين العبد وربه ؛ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون» وهذا ما جعل الإسلام يهزم البوذية والزرادشتية في عقر دارها ، ويدخل الناس فيه أفواجا من كل أمة ونحلة ؛ هرباً من عتو الكهنة واغتصابهم لحرمتهم ، وتحكمهم في أرواحهم (٣) .

كل مسلم مكلف بمعرفة دينه ، والتفقه فيه ، فلا طوائف دينية في الإسلام ، ولا كهنة جباهم الله القداسة والقربى ، بل الناس أمام الله سواسية كأسنان المشط ، أكرمهم عنده أرقام . والتشفع بالأولياء ، في شرعة الدين الحقة ، ضرب من البدع وانحراف عن جادة الصواب ، وروح الإسلام .

ربما توهم بعض الناس أن التقرب إلى الله بإراقة دماء الأنحمة من تعاليم الإسلام ، ولكن هذا باطل لأن نحر الأضاحي في عيدنا

(١) راجع Our Indian Muslamans مؤلفه Hunter ص ١٧٩

(٢) حديث شريف

(٣) راجع كتاب البداية الاسلامية لسير توماس أرنولد « الاسلام

في بلاد فارس »

